مكتبة

إلهام خوري مقدسي
شرق المتوسط وتعميم النـزعة الراديكالية

ILHAM KHURI-MAKDISI
The Eastern Mediterranean and the Making of Global Radicalism, 1860-1914
University of California Press (2010)

لـم يكن لهذه الدراسـة الرائدة عـن الحركات الراديكاليـة، التـي نشـأت في مصر وسـوريا خلال الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، أن تُنشَـر فـي وقت أفضل من هـذا التوقيت. فهي تأتي عشيّة الأحداث الدرامية التي باتت تحيط بكل دولة من دول الشـرق الأوسط التي نشـأت على أنقاض الإمبراطوريـة العثمانية. يسلّط هذا الكتاب الضوء على التاريخ المخفيّ للجماعـات والحـركات الجماهيرية والطبقات التـي يمكن اعتبـار أنها مثّلت البشـائر الأولى لظهور الحركات الشـعبية إبان حقبة الانتداب البريطانيّ والفرنسـيّ، والتي جـرى تصويرها على نحـوٍ كاريكاتوريٍّ سـاخرٍ مؤخّرًا، وبعد مُضـيّ عـدّة عقـودٍ على نشـأتها، علـى أنها تشكيلٌ للشارع العربي الأسطوري.

يفنّـد كتـاب «شـرق المتوسـط» ثـلاث فرضيات رئيسـة متأصّلةٍ حول الحداثة العربية التي برزت في القرن التاسـع عشر. وترى أول هذه الفرضيات أن النهضة العربية التي أبصرت النور في القرن التاسـع عشر كانت في أساسها حركـة قومية غَلَـب عليها الطابـع البرجوازيّ الذي وَسَـم المفكرين والمهاجرين السـوريين – اللبنانيين. وتتصوّر الفرضية الثانية أن النهضة العربية كانت عبارة عن حركة قومية لم ترتبط بالاضطرابـات الأيديولوجية التـي كان العالم يشـهدها آنذاك. وبالنسـبة للفرضيـة الثالثة، فقد كانت هـذه النهضة تعبّر عن حركةٍ أدبية سياسـية مسـتعربة كانـت تفتقر إلـى أجندةٍ اجتماعية ومنظورٍ ثوريّ.

وتقدّم الكاتبة خوري – مقدسي دراستها

على أنها تفسير جديد للنهضة من خلال إلقاء الضوء بصورة متواترة على الجماعات والمصادر التي لم تخضع للدراسة والتحقيق في أوقاتٍ سابقة، أو لم تُوَفّ حقّها من البحث والاستقصاء. وتشتمل هذه الجماعات والمصادر على الحركات النقابية والحركات العمالية، وروّاد المسرح والأعمال الدرامية، وأرشيف البلديات، وشبكات المهاجرين التي كانت تربط بين الساحل السوري ومصر والمراكز الحضرية في العالم الجديد (سيما سان باولو، وبيونس أيريس ونيويورك) – والأهم من ذلك كلّه – المسارات التي اختارها عشرات من الكتاب والنشطاء الراديكاليين لخطّ سِيرهم الذاتية، والذين تُرِك الكثير منهم في غياهب النسيان مع بروز الخطاب القوميّ.

يعيد هذا الكتاب النظر في سيرة فرح أنطون، وأمين الريحاني، وسيد رضا وكثيرين غيرهم، ويقف على إبداعاتهم الفكرية في ضوء إسهاماتهم في خلْق الخطاب الاشتراكي والراديكالي الذي لم يكن معروفًا في ذلك الحين. وتُميط الكاتبة اللثام عن روايةٍ جرى إسكاتها وتهميشها، مع أن الأثر الذي خلّفته يُعتبر ضروريًّا لفهم البيئة السياسية والفكرية التي كان الشرق الأوسط ومراكزه الحضرية يزخران بها في مطلع القرن العشرين.

وتعزو الكتابة هذا الإسكات إلى عدد من العوامل، منها سيطرة حركة التأريخ القوميّة التي انبثقت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وانتصار الدول الإقليمية التي كانت تشهد الانقسام والتفتّت، والروايات التي كانت النّخب المحلية فيها تقدّمها، ووفرة الدراسات التي تطرّقت إلى التاريخ الفكريّ من خلال منظور الصحافة الضيّق والمذكرات المحدودة التي كانت النخب المذكورة تضعها.

وبالنظر إلى استشراء الأمية والرقابة على نطاقٍ واسع، تطرح الكاتبة فرضية مفادها أن الكلمة المطبوعة « لم تكن بالتأكيد هي الوسيلة الوحيدة المستخدمة للتعبير عن الراديكالية، فقد كانت الكثير من الأفكار الراديكالية تلقى التعبير عنها على خشبة المسرح وفي المقاهي والجمعيات التعاونية والمدارس الليلية (ص. ١٦٨). وعلى الرغم من أن العديد من أعلام هذه الجمعيات الراديكالية، سيما أولئك الذين كانوا يشتغلون في الصحافة والمسرح، ينحدرون في أصولهم من أقليات دينية أو مشرقية إثنية مهمشة في بلاد الشام (كأقليات الطليان، والأرمن والمهاجرين الشوام في مصر)، تستعرض الكاتبة حالة مقنعة تقول فيها إن هذه الحركة – أو بالأحرى هذه الحركات – كانت في مرحلة مبكرة، وبحلول الثمانينيات من القرن التاسع عشر على وجه التحديد، تحولت إلى حركات أصيلة، بل

وأُسبِغت عليها هذه الصفة. وقد شمل هذا التحوّل عددًا كبيرًا من المصلحين الإسلاميين والعسكريين من أبناء الطبقة العاملة والنقابيين الفوضويين.

ومن الخطأ، كما ترى الكاتبة النظر إلى نهضة القرن التاسع عشر من منظور الانبعاث القومي العربي وحده، لأن العديد من منظِّريها البارزين كانوا منخرطين في الحركات الراديكالية والثورية المحلية والعالمية و/أو مشتركين معها. ومن بين المدن الثلاث التي تتناولها هذه الدراسة (وهي القاهرة وبيروت والإسكندرية)، يبدو أن مدينة الإسكندرية تمثّل المركز الذي جسّد تجمُّع التيارات الدولية والإقليمية ومهّد الطريق لقيام بيئة حضرية كوزموبوليتية خلاقة وأصيلة في جانب كبير منها.

وتنقاد الكاتبة، بناء على تحمّسها لإثبات الأثر التي أفرزته الحركة الراديكالية المبكّرة في سوريا ومصر، بين الفينة والأخرى إلى استقراء قدر كبير من النفوذ الذي مارسته شخصيات مغمورة وثانوية كانت تنشط في هذه الحقبة. ففي النقاش المطوَّل الذي تسرده حول الحركة العمالية في جبل لبنان والدور البارز الذي اضطلعت به جريدة «النور»، التي كان فارس مشرق وجرجي باز يديرانها، تخلُص الكاتبة مقدسي إلى نتيجة مفادها أن هذه الجريدة، ومن خلال تصديها للدفاع عن حقوق العمال والدعوة إلى السيطرة على العملية الإنتاجية، خطت خطوات جديدة نحو المفهوم الراديكالي للعمل. وتضيف في هذا المقام:

«لقد نشأ التصوّر بأن العمال يملكون قوة التفاوض نتيجة توجّهين. فمن جهة، تمخّض هذا التصور عن إدراك حقائق تضرب جذورها في الواقع المحلي، والتي كانت تتمثل [على وجه التحديد] في الوضع الاقتصادي السائد في سوريا وواقع الاختراق الأوروبي. ومن جهةٍ أخرى، يشير التصور المذكور إلى بروز هذا الواقع المحلي بعينه ... لأنه كان مرتبطًا بالتعبير عن تصور أكثر تجريدًا للعمل، وهو ما أشار إلى فهم يتّسم بدرجة أكبر من التعقيد للمبادئ الاقتصادية» (ص. ١٠١–١٠٢).

ومع ذلك، تدلّ المادة التي تقتبسها الكاتبة في البداية لتأييد هذا الاستنتاج على توجّه اجتماعي ديمقراطي سلمي نقابي (وخيري تقريبًا) ساد في أوساط القيادات العمالية ذاتها، والتي كانت تسعى إلى إبرام اتفاقية عمل مع أصحاب المشاريع بغية تجنّب خوض مواجهة مباشرة مع العمال تتسبب في اضطرابات عمالية طويلة الأمد. وتقتبس الكاتبة عن هؤلاء قولهم: «نحن لا نسعى إلى إطلاق ثورة أو إلى مواجهة بين الشركة وهؤلاء

العمال . . . ولكننا نطلب من الإدارة أن تساعد هؤلاء الفقراء، وأن تمنحهم ما يستحقونه وأن تساوي بين حقوقهم وواجباتهم . » وفي هذا المقام، نرى أن الهدوء وتجنُّب الصراع بين الطبقات يُمنح غطاءً من التحريف الراديكالي .

وللتأكيد على ذلك، لا تطرح الكاتبة بديلاً يقابل تاريخ النخبة، وإنما تعرض شبكة خفية ومعقدة ومتعددة المستويات من الخطاب الفكريّ الذي قدّمته طبقة من أصحاب الحِرف والمهن الذين ينحدرون من الطبقة الوسطى، والذين كان الكثير منهم يحظون بالأمان في منزلتهم الاجتماعية ويحاولون إثارة الشعور العام لإقامة نظام اجتماعي يخلو من استغلال الطبقات ومن قمع الدولة والاضطهاد الذي تمارسه . وكانت الأدوات التي وظّفوها في مسعاهم ذاك تشمل الجمعيات التعاونية والمدارس الليلية والصحافة الراديكالية – والأهمّ من كلّ ذلك – الحركة المسرحية الشعبية التي كانت تعمل بمثابة « صحافة الجماهير » .

تكمن أصالة كتاب « شرق المتوسط » في أنه يقدّم نموذجاً استقصائيا يسعى إلى احتواء الشبكات الإقليمية والعالمية التي عملت هذه الأفكار والحركات في ظلها . ومن خلال هذا النموذج، تسعى الكاتبة إلى إعادة تفسير طبيعة وجود المهاجر الشاميّ في مصر والعالم الجديد، بالإضافة إلى أوجه الالتقاء والترابط التي كانت قائمة بين النخبة المثقَّفة الراديكالية التي ينحدر أفرادها من بلاد الشام والتيارات الاشتراكية والفوضوية التي كانت منتشرة في جنوب أوروبا والأمريكتين آنئذ .

ويتركّز التحليل الذي تستعرضه المؤلفة على العلاقة الثلاثية القائمة بين الإسكندرية (« مهد الراديكالية في شرق المتوسط ») والقاهرة وبيروت – مدينتان أسمتهما « بالمركزين المحوريين » للشبكة الإقليمية . ومع أن اختيار هذه المدن الثلاث يلقي الضوء على الجوانب الغامضة، فهو يُعتبر إشكاليًا في ذات الوقت . فالقاهرة وبيروت والإسكندرية كانت مدنًا كوزموبوليتية احتضنت صحافة نشطة ومسرحًا حديث النشأة وطبقة مثقفة كانت تُخضِع الأفكار الراديكالية لنقاشٍ مستفيضٍ في حوارات لم تكن تفتُر مع مفكرين من أقرانهم (مثل الداروينيين والاشتراكيين والفوضويين) في أوروبا . كما خاضوا في الجدل حول تحرير المرأة والإصلاح الإسلامي – وهما حركتان حظِيتا بقدرٍ أقلّ بكثير من الاهتمام والتمحيص من جانب الكاتبة .

وكانت هذه المدن مرتبطة بحركتين رئيستين جمعت بين شتاتهما . وكانت أولى هاتين الحركتين الهجرة السورية الكبرى للتجار وأصحاب المهن والمفكرين في أواخر النصف

الثاني من القرن التاسع عشر، والذين سعوا إلى الهرب من الرقابة على الصحافة والاضطهاد. وقد شكلت هذه الحركة ما بات يُعرف فيما بعد بالوجود الشامي في مصر. وفي المقابل، كانت هجرة المصريين المعاكسة من مصر إلى سوريا وفلسطين، التي لم تحظَ بذات القدر من الشهرة (ولم تعالجها المؤلفة في كتابها) تتألّف في جُلِّها من الطبقة البروليتارية العاملة. وقد بدأت هذه الهجرة مع حملة إبراهيم باشا في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر وتواصلت دونما انقطاع حتى نهاية ذلك القرن.

أما الحركة الثانية فقد استهدفت الإفلات من قبضة المركزية العثمانية. وكانت هذه الحركة، اتخذت من القاهرة مقرًّا لها، تسعى إلى إعادة تحديد علاقة الباب العالي بمصر بغية الحصول على قدر أكبر من الاستقلال. وقد تحولت هذه الحركة، في مرحلة لاحقة، إلى الدعوة إلى إقامة اتحاد بين مصر الخديوية وسوريا.

ويعتبر اختيار الكاتبة للمدن المذكورة إشكالياً كذلك بسبب الجوانب التي يستبعدها ويُقصيها. فهناك بُعدٌ غائب من أبعاد الدولة العثمانية. فطالما أن هذه الدراسة مؤطَّرة ضمن نموذج يتناول وضع شبكة عالمية من الحركات في منطقة شرق المتوسط، يندهش المرء من غياب دمشق وإسطنبول، وهما مدينتان تقفان إلى جانب حلب التي جسّدت وعكست أكثر من غيرها المعضلات التي اقترنت بالهوية العثمانية في سوريا الكبرى بين الثورتين الدستوريتين في العامين ١٨٧٦ و١٩٠٨.

وفي هذا المقام، من اللافت للنظر أنه بعدما فُصِل شبلي شميّل، أحد الأبطال الذين تستشهد بهم الكاتبة وأحد أعلام الفكر الاشتراكي والداروينى في القرن التاسع عشر، من مدرسة الطب في الكلية السورية الإنجيلية في بيروت في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، فقد سعى إلى استكمال دراسته في إسطنبول وليس في القاهرة التي هاجر إليها الكثير من رفاقه بما فيهم جورجي زيدان وغيره.

وعلى الرغم من أن الكاتبة تخرج بملاحظات هامة حول الإسهامات الجليلة التي قدّمها مدحت باشا في إقامة الأماكن العامة في سوريا، وإسهام المسؤولين العثمانيين المحليين، من قبيل متصرف جبل لبنان مظفر باشا، في توسيع المدارس الليلية للعمال في عدد من المناطق (ص. ٩٧)، فإن هذه الملاحظات لا تندرج ضمن الأطروحة الرئيسة التي تبسطها في كتابها.

وفضلاً عن ذلك، يلاحظ القارئ معالجة غنية ومُحكَمة للجماعات في جبل لبنان، ولكنه يلحظ، المقابل، غيابًا تامًا للمراكز

الحضريــة التي كانت تحتل أهميــةً قصوى في أقاليــم كاللاذقيــة ويافا. فقد شــهدت هاتان الحاضرتان بواكير الحركــة العمالية الراديكالية (مزارعو التبــغ في اللاذقية وعمــال الميناء في يافــا). فهــل كان يمكــن أن تكــون الصــورة مختلفة لو درســت الكاتبة المسائل الراديكالية التي كانت تستحوذ على اهتمام مجلة «ثروت فنون» [ثــروة المعرفة] الطليعيّة الإســطنبولية والصحافة الدمشقية؟

تختتم الكاتبة دراســتها بإشارة مقتضبة، وآســرةٍ فــي ذات الوقــت، إلــى الآثــار المدمرة التــي خلّفتهــا الحــرب العالمية الأولــى ونهاية الإمبراطورية العثمانية، على الإمكانيات التي كانــت هذه الجماعــات الراديكالية تزخر بها. علــى وجه الإجمال، يمكن قــراءة هذا الكتاب على مستوياتٍ مختلفة، وذلك باعتباره تاريخًا تصحيحيــاً لحركة النهضــة، وباعتبــاره نافذة على العالم والحيــوات والحِقب التي عاش فيها مفكــرون ثوريون في بلاد الشــام خلال الفترة التي سبقت انتشــار الشيوعية فيها، وباعتباره دراسة لشبكات الفكر الراديكالي العالمية التي ســادت في القرن التاسع عشر وارتبطت بشرق المتوسط من خلال مراكزه الحضرية المحورية.

وقــد ســاعد إلمــام الكاتبــة بالمصــادر العربيــة والعثمانية والتركية والإيطالية والفرنسية على الكشــف عن جوانــب ضائعة، وغيــر معروفة بالنســبة لقــراءٍ كُثــر، مــن الحيــاة الثقافية في الشــرق العربــي. ومن المؤكد أن هــذا الكتاب سيشــكل مرجعًــا لا غنــى عنــه حــول الفكر الراديكالي العربي في القرن التاسع عشر وحول امتداداته في بلدان المتوسط وفي بلدان العالم. وســوف يجد الباحثون المتخصصون في عصر النهضــة العربيــة ضالّتهــم فــي هــذا البحث الدقيق والمستفيض حول الأصوات الهامة التي غيّبهــا النســيان في بواكير الحــركات العمالية والاشــتراكية والفوضوية وحــول الروّاد الأوائل في المسرح والصحافة.

سليم تماري